١٥ ــ حيـاء

ولم لا تستحى[١] الوزارة وأعضاؤها ناس من الناس ، يشعرون ويحسون ، ويرضون ويسخطون ، ويجدون الألم حين يشتد على أقل تقدير ، ويخافون سوء القالة حين يتجاوز الحد المعقول .

وقد وقفت الوزارة من الاقتصاد مواقف أقل ما توصف به أنها مضحكة ، لا يستطيع إنسان أن ينظر إليها نظرة الجد ، أو أن يفكر فيها كما يفكر فى المواقف التى تحتمل البحث والنقد ، وتصلح موضوعا للتفكير والتقدير .

لم تكد تتقدم بها السن حتى ملأت الأرض صياحا بأن خزانة الدولة فى خطر ، وأن الاقتصاد بل التقتير أمر لا بد منه ولا منصرف عنه ، وأن الموظفين خليقون أن يستجيبوا لدعاء الواجب ، ويسمعوا لنداء الوطن ، ويزهدوا فى حقهم من العلاوة والترقية حتى لا تخلو الخزانة ، ولا تعجز الدولة ، ولا تتعرض مصر للإفلاس . وضاق الموظفون بهذا الكلام ، ولكنهم صدَّقوه ، واطمأنوا إليه ، واستجابوا لدعاء الواجب ، وزهدوا فى العلاوة والترقية ، وما هى إلا أن تشتد حاجة الدولة إلى الاقتصاد ، وتتعرض أموالها للنفاد ، فإذا تضحية أخرى تطلب من الموظفين ، وإذا التجاء آخر إلى الشعور الوطنى والواجب القومى ، والضن بمصر على العجز والإفلاس ، وإذا مرتباتهم تنقص فيضيقون بالنقص ، ولكنهم يقبلونه مستجيبين للواجب ، ثم يظهر أن ما نقص من مرتباتهم قليل ، فتطلب إليهم تضحيات أخرى ، ويصور لهم الواجب الوطنى فى صوره تملأ القلوب رقة للوطن ، ورفقا به ، وعطفا عليه ، فينزلون من مرتباتهم عن جزء آخر ، وقد أخذوا أنفسهم بالاستعداد لتضحيات أخرى تطلب إليهم ، وتكاليف أخرى تفرض عليهم ، ولكنهم ينظرون فيرون ويا شر ما يرون ! يرون أن الترقيات والعلاوات تحظر عليهم عامة ، ثم لا يلبث باب الاستثناء أن يفتح قليلا قليلا ، وأن تنفذ منه الترقيات والعلاوات إلى طائفة من الأصفياء والأولياء ، ومن المحسوبين والمقربين فيألمون ويسكتون ،

---

(١) ١٥ ــ ٥ ــ ١٩٣٣ .

منهم من يستحى فيلزم الصمت ، ومنهم من يشفق فيأخذ نفسه بالإغضاء والإعراض . ويزداد باب الاستثناء انفتاحا ، وتزداد العلاوات والترقيات منه نفوذا ، ويزداد ألم الموظفين شدة ، وغيظهم حدة ، فمنهم من يجمجم ، ومنهم من يغمغم ، ومنهم من لا يتحرج عن الكلام الواضح والإنكار الصريح ، ثم ينظر الموظفون فيرون ويا شر ما يرون ! يرون أن الوزارة قد نقصت مرتباتهم جميعا ، ولكنها عادت فدارت حول بعض هذه المرتبات المنقوصة حتى ردتها كما كانت ، أو زادت فيها بعض الشيء .

فعلت ذلك مع جماعة من الأجانب احتجَّت مفوضياتهم على نقص مرتباتهم بضريبة التمغة ، فزعمت أن ليس من قبول الأجانب لهذه الضريبة بد ، ولكنها زادت فى مرتباتهم بمقدار ما نقصت منها أو أكثر منه شيئا ، فأعطى هؤلاء الأجانب باليمين ، وأخذ هؤلاء الأجانب بالشمال . وفعلت ذلك مع بعض الأصفياء والأولياء ، ومع بعض المحسوبين والمقربين فاستكشفت لهم أعمالا نادرة ، وكفايات باهرة ، وجزتهم على تلك الأعمال بالمال ، وعلى هذه الكفايات بالترقيات وما زالت بهم حتى عوَّضتهم من النقص زيادة ، ومن الخسارة ربحا . وحتى تمنى غيرهم لو نقصت مرتباتهم أضعافا ، ثم استكشفت لهم أعمال تجزىء بالمال ، وكفايات تقدر بالترقيات . هنالك جمجم بعض الموظفين ، وغمغم بعضهم الآخر ، وغلى بعضهم فآثر التصريح على التلميح ، وامتلأت مكاتب المصالح والوزارات ، وأجواء الأندية والقهوات بيأس اليائسين ، وطمع الطامعين ، وسخط الساخطين ، واحتيال المحتالين ، وأصبح جو الحكومة جو مكر وكيد ، ولوم وعتب ، ويأس وسخط ، هذا يشكو ، وهذا يرجو ، وهذا يتندر ، وهذا يفوض أمره إلى الله . كل يفكر فى مرتبه : أينقص أم يزيد أم يبقى حيث هو ؟ وكلٌّ يفكر فى درجته ، وكلٌّ يفكر فى زملائه الذين خرجوا معه من المدرسة أو خرجوا بعده منها ، ثم سبقوه سبقا لا أمل له فى أن يبلغ أمده .

كلٌّ يفكر فى هذا ، وكلٌّ يتحدث بهذا ، وكلٌّ يلهج بهذا فى المكتب والنادى والقهوة حتى إذا عاد إلى بيته أظهر لأهله وجها مظلما ، وجبينا مقطبا ، وخلقا

سيئا . ولم يتحدث إلى امرأته فى شئون البنات والأبناء ، ولا فى جد الحياة وهزلها ، ولا فى لذات البيت وآلامه ، وإنما تحدث إليها فى أن فلانا قد ارتقى ، وفلانا قد زاد ، وهو ما زال حيث هو ، لا حظ له من رقى ولا من زيادة ، وفى أنه قد كتب مذكرة يشكو فيها ويتظلم ، أو يضرع فيها ويستعطف ، أو يدافع فيها عن حقه ويذود عن حظه ، فطويت مذكرته طيا ، وأهملت مذكرته إهمالا ، وأخذ رؤساؤه ينظرون إليه شذرا ، ويلقونه بابتسامة صفراء فيها الرحمة والازدراء .

وأهله يسمعون لهذا الحديث فيأسون ويشقون ، ثم يرثون ويعزون ،ثم يجدون فى التسرية والتسلية فلا يبلغون مما يريدون شيئا . وإذا هم ينغمسون فى حزن عميق ، وسخط كثيف وإذا هم مثله ينكرون ويستمطرون سخط الله على الظالمين ، وصغار البيت يمرحون فى لعبهم ولهوهم ، ثم يبدو لهم فيقبلون بوجوه باسمة حلوة على أبويهم فلا يرون إلا وجوها عابسة مرة ، فينصرفون وقد انطفأت فى نفوسهم الناشئة جذوة الفرح والمرح ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون : ما لأبينا قد غيَّر وجهه الحزن ، وما لأمنا قد بللت خدها بالدموع ؟

ليس فى هذا الحديث مبالغة ، وليس فى هذا الحديث إسراف ، وأقسم أن صغار الموظفين ليعرفونه كله ، وأقسم أنهم ليقرُّونه كله ، وأقسم أن أهلهم ليثبتونه كله ، لا ينكرون منه حرفا ، ولا يغيرون منه شيئا ، وأقسم أن بناتهم وأبناءهم ليشفقون فى كثير من الأحيان من أن يلقوهم أو يسعوا إليهم . مخافة أن يجدوا فى وجوههم من الحزن والهم ما يكرهون .

ومع ذلك فهؤلاء الموظفون أحسن المصريين حالا ، وأوسع المصريين آمالا ، وأشد المصريين ثقة بغد ، وأمنًا من الظمأ والجوع .

وكذلك مضت الوزارة تبسط يدها لفريق من الموظفين ، وتقبضها عن فريق آخر حتى بلغ سوء الظن أقصاه بين الزملاء ، وبين المرءوسين والرؤساء ، منافسة تدعو إلى سوء الظن ، وظلم يدعو إلى سوء الظن ، وجور يدعو إلى سوء الظن ، وأعباء الدولة فى أثناء هذا كله مضيعة مشردة ، ينفذ بعضها على كسل ومضض ، ويهمل بعضها فى سخط واستهزاء .

حتى إذا كان يوم الخميس الماضى واجتمع مجلس الوزراء فى المساء ؛ عرضت عليه طائفة من الترقيات والعلاوات كلها استثناء ، وفيها إسراف وغلو فى الإسراف ، جمجم بعض الوزراء فيما تقول الصحف ، وغمغم بعضهم الآخر ، وكانوا معذورين فكلهم فى حاجة إلى الاستثناء ، وكلهم قد وعد فأسرف فى الوعد ، وكلهم يسمع شكاة الشاكين ، واستعطاف المستعطفين ، فما بال أقوام يظفرون وقوم يخسرون ؟! وكذلك انتهى الأمر بمجلس الوزراء إلى أن آثر الصراحة على الالتواء ، ففتح باب الترقية والعلاوة على مصراعيه ، وأذن للوزارات والمصالح فى أن ترفع إليه أسماء الأكفاء الذين يستحقون ترقية أو علاوة لينظر فى أمرهم ويجزيهم على صبرهم خيرا ، ولكن هذه الترقيات والعلاوات التى أجيزت يوم الخميس الماضى كثيرة فاحشة ، فيها محاباة ومداراة ، وإيثار لقوم على قوم ، وهى إن ظهرت أثارت من سخط الموظفين كل كمين ، وهى إن ظهرت فتحت على الوزارة أبوابا يجب أن تظل مغلقة حتى يكون إنصاف المظلوم وإرضاء الغاضب ، وهى إن ظهرت جعلت الوزارة مضرب الأمثال عند المعارضة فى التصرفات المضحكة المضطربة التى لا تصدر عن قصد فى التفكير والتقدير ، ولا عن إيثار للمنفعة العامة على إرضاء الأولياء والأصفياء ، ومجاراة المنافع والأهواء ، والوزراء ناس من الناس يحسون الخجل ، ويجدون الحياء ، فيجب أن تكتم قرارات يوم الخميس وتحفظ سرا مصونا تلقى من دونه الأستار ، ولا تنفذ إليه الأبصار حتى تسكن العاصفة ، وتهدأ الثائرة ، وتظهر ترقيات وعلاوات أخرى فتضيع هذه الاستثناءات وتمر دون أن يشعر بها الناس !

وكذلك وجدت الوزارة لنفسها مخرجا من هذه الورطة ، ولكنها تستطيع أن تستوثق بأن هذا المخرج لن يخرجها من شىء ، فأسرارها هذه معروفة مهما تكتم ، وغيبها هذا مكشوف مهما يستر ولن يخرجها من هذه الورطة إلا أمران ، أحلاهما مر : فإما أن تلغى الاستثناءات التى أقرَّتها ، وإما أن تغرق الموظفين فى فيض من العلاوات والترقيات ، ويومئذ يضحك الناس لأسطورة الاقتصاد ، كما ضحكوا من قبل لطائفة كثيرة من أساطير الوزارة ..!!

أما إن سيرة الوزارة خليقة أن تثير فى نفوس الوزراء عاطفة الحياء ؟.